

تولستوى الحائر (*)

للأستاذ محمود الخفيف

(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

تذكره أبداً بفزعه الأكبر منها ؛ وهو ما فكر فيها لجرده الفكر في ذاته ، ولكن شيئاً مبهماً خفياً ظل يوجه نفسه هذه الوجهة منذ حدثته ، لا يتقطع عنه إلا ليمود إليه أقوى بما كان ، وما زال حتى وقف به على حافة الهاوية ...

وما قصر أو نهان في درس أو قدم عن استقصاء . قال : « ولكنى ربما كنت قد سهوت عن شيء أو أخطأت فهم شيء . ذلك ما تحدثت به إلى نفسي سراراً ؛ فليس من الممكن أن تكون مثل هذه الحال من اليأس أمراً طبيعياً في الإنسان . ثم بحثت عن تفسير لهذه المسائل في كل ناحية من نواحي المعرفة بلغتها الناس ، وبحثت بحثاً مؤلماً طويلاً ، لا لجرد الفضول والنظر ، وقضيت في بحثي الشاق زمناً ، بالنهار وبالليل ، أجده كما يجد من أشرف على الهلاك حين يطلب النجاة ؛ فلم أعد من ذلك بطائل » لم يدع شيئاً من العلوم النظرية ولا من العلوم التجريبية ، والسكينة لم يجد في العلم بنيتها . فما بلغ العلماء من العلم إلا بعض ما يتصل بأبحاث المختصين والمخترفين ، أما ماله صلة بالمشكلة الأساسية وهي مشكلة الحياة ، فقد أهملوه أو جهلوه . يقول عن العلماء « إنهم هكذا يجيبونك : أما عن سؤالك : ماذا أنت ولم نمش ، فليس لدينا جواب ، وليس هذا مما تشغل أنفسنا به . أما إذا أردت أن تعلم قوانين الضوء أو قانون الاتحاد الكيميائي أو غيرها فلدنا أجوبة واضحة معددة عن ذلك لا تقبل الجدل » .

ولم يدع شيئاً مما له في الفلسفة صلة بمسائل الحياة ، فقرا سقراط وبوذا وسليمان الحكيم وشوبنهاور وأصحابهم ، ولكنه لم يرجع من فلسفتهم إلا « بأن كل شيء في الحياة عبث ، وأن السعيد هو ذلك الذي لم يولد » .

ماذا يقول سقراط ؟ أليس هو القائل : « إننا نقرب من الحقيقة كلما أخذنا في الابتعاد عن الحياة ، ولأن حياة الجسد شر وباطل ؛ وعلى ذلك فالتقضاء على حياة الجسد من النعيم ، وينبغي علينا أن نطلبه ؟ » وماذا يقول بوذا ؟ أليس هو القائل : « إن من المستحيل أن نمش وفي نفوسنا أن الألم أمر لا بد منه ، وأنا سوف يلحقنا الضعف ويصيبنا الكبر ويدركنا الموت .. ألا إنه يجب علينا أن نتخلص من هذه الحياة ؟ » .

وماذا يقول سليمان ؟ أليس هو القائل « عبث في عبث وباطل في باطل ، وماذا يجني الإنسان من عمله تحت الشمس ؟ بعض

ما الحياة إلا وهم . وما سميناً فيها إلا عبث . وما أنفسنا وأولادنا إلا طعام للدود . وما مسراتنا وملاهيها إلا كأصوات الخناثين من الأطفال في ظلام الغابة اللغاء يدرأون بها عن أنفسهم الخوف . وما ذلك الذي نسميه في الحياة جمالا إلا غرور ، إن كل ذلك إلا باطل ؛ وإن هو إلا اللامشي . ذلك ما أغشى به إليه تأمله ، وذلك ما يذهبه ويفزعه ويحيطه باليأس من جميع أنظاره وليته ينسى ! ولكن أنى له النسيان وهذه الحياة نفسها

(*) من كتاب « تولستوى » الذي يظهر بعد أيام عن دار الرسالة بالقاهرة .

أن هذا يجري فيما وردت بحله نصوص (تفصيلية) محكمة في الكتاب والسنة كما هو الحال في تعدد الزوجات (وابست هذه النصوص - فيما أعتمد - موضع خلاف بيني وبين الأستاذ عبد المتعال) ، ولا تنفذ عباراتهم جريانه إلا فيما هو من قبيل « المصالح الرسة » التي لم يشهد لها الشارع بحل ولا بحرمة فتكون - قبل نهى ولي الأمر - على أصل الإباحة ، أو « سد الذرائع » بالنهي عما يدخل تحت نصوص (أجمالية) بالإباحة إلا أنه يتخذ ذريعة لإرتكاب محرم . والحرمة الاستفادة من نهى ولي الأمر في هذه المواضع وما شابهها تكون مستندة في الواقع إلى دليل عام من الكتاب أو السنة ، فلا يقال إنها شرعت بنهي ولي الأمر ابتداء . على أن مسألة نهى ولي الأمر عن المباح - حتى في نطاق هذا التحديد الذي بيناه - مسألة خلافية ، القول فيها طويل والرأي غير مستقر ؛ نهى ، من كل الوجوه ، ليست بالذي يصح أن يمول عليه في مثل هذا الباب .

أما ما استشهد به من موضوع « زراعة القطن » فلا يصلح للاستشهاد لأنه قياس مع الفارق الكبير ، وهذا ظاهر .

أبراهيم زكي الدين بروي

التخصص في التربية الإسلامية والقانون
من جامعات الأزهر وباريس ونواذ

أقول نعم؟ إذن فإلى القصر . ولن أخرج بعد ذلك أبداً طلباً للفتنة .
ثم إن سكيا موني فقد كل عزاء ، وأيقن أن الحياة أعظم
شر ، وجعل همه كله أن يتخلص منها ويخلص غيره .

هكذا تصور الحكمة الهندية الحياة . وهكذا راها نواستوى ،
ولقد فكر كثيراً في أن يتخلص منها ...

ولكنه يرى كثيراً غيره من الناس يعيشون لا تزعمهم الحياة
ولا يكربهم التفكير فيها ، فإذا كان لم يجد في العلم هداه ولا في
الفلسفة ، أفلا ينظر في حياة الناس ليرى كيف يرضون ولا يشقون
مثل شقائه ؟

وعرف من الناس في الحياة أربعة أنماط : فريق هم الجهلاء
الذين لا يدرون أن الحياة عبث وسخف ، وإيس له في هؤلاء
فائدة ؛ لأنه لا يستطيع أن يعود جاهلاً . وفريق يعملون سخفها ،
ولكنهم مع علمهم يوطنون أنفسهم على تحملها ، وهو لا يقدر أن
يجاريهم فهو متبرم ساخط . وفريق هم الجادون الماملون الذين
يتخلصون من الحياة على أية صورة ، وهو لا يستطيع أن يفعل
فعلهم لأن شيئاً خفياً يمنعه من ذلك كالأغراء اليأس . وفريق
يرون الحياة زوراً وعبثاً وأن لا خير في مستقبل ولا رجاء ، ومع
ذلك فهم يتعلقون بها وإن تمذّبوا ، وهو من هذا الفريق .

على أن هناك فريقاً خامساً لا يدخل في هذه الأنماط الأربعة ،
هم أولئك الذين لا يكثر لهم أحد ، وينظر إليهم السادة نظرتهم
إلى الدواب ، وهؤلاء قد وجدوا لهم في الحياة معنى يعيشون
عليه ، معنى لا يتصل بالمقول ولا بالفلسفة ، وذلك هو الإيمان .
ولكن إيمان هؤلاء يقوم على أساس من الأرثوذكسية
عقيدة الكنيسة الروسية الإغريقية ، وهي ما لا يستطيع أن يحمل
عقله على قبوله ...

يا للحيرة ! إن العقل يفضي به إلى إنكار الحياة نفسها ، وإن
الإيمان يقتضي أن يعطل العقل ... أى بلاء هذا ؟ وأى ليل مغمم !
ولكنه علم فيما علم قول المؤمنين إنه لا بد من إعداد النفس
للإيمان حتى تؤمن ؛ وإذا فإيدع العقل جانباً وليناقض رجال
الدين ، ولينظر في كلامهم لعله يصل إلى قلبه ، وليقرأ ما كتبه
آباء الكنيسة ، وليطالع سير القديسين ، وليتعبد فيقيم الشمائر
جميعاً ، وليزر الأديرة ، وليذهب إلى الأب الصالح أمبروز ، ذلك

جيل وبأن جيل غيره والأرض هي الأرض قاعة أبداً ؛ وكل
ما كان هو ما سوف يكون ، وما عمل هو ما سوف يعمل ؛ ولا جديد
تحت الشمس . ولن يذكر ما مضى من الأشياء ، وكذلك ما هو
آت فسوف لا يذكره من يأتي بعده .

وماذا قال شوبنهاور ؟ ليس هو القائل : « الحياة هي ذلك الذي
كان يجب ألا يكون ... هي الشر ؛ وإن انتهاءنا إلى اللانثى
هو الخير الوحيد فيها » .

وهذه الحكمة الهندية القديمة كيف تصور الحياة ؟ « كان
سكيا موني أميراً شاباً يعيش عيشة سعيدة حجب عنه العلم بالمرض
والسكولة والموت . وخرج الأمير ذات يوم للزهة فبصر بشيخ
فقد أسنانه ، يتمتر في مشيته ، ويبحث منظره الرعب في النفس ،
فسأل ذلك الأمير الذي لم يكن له علم بالشيخوخة حتى ذلك
اليوم سائق عربته ، وقد أخذه العجب : ماذا يكون ذلك ؟
وكيف وصل الرجل إلى هذه الحال التمسدة الكريهة ؟ ولما علم الأمير
أن ذلك حظ الناس جميعاً ، وأنه سوف يصيبه لا محالة يوماً ما ،
لم يستطع أن يستمر في زهته ، وأمر سائقه فماد به إلى القصر
ليتفكر في هذه الحقيقة . ثم أغلق من دونه الأبواب وجعل
يتفكر . ويرجع أنه وجد عزاء لنفسه ؛ فقد خرج ثانية للزهة
مبتهجاً سعيداً ، ولكنه أبصر هذه المرة مريضاً منهكاً أعشى
العينين مرتعش البدن ، ولما لم يكن للأمير علم بالمرض فقد وقف
وسأل عن ذلك . ولما علم أنه المريض ، وأن كل إنسان عرضة له
وأنه هو نفسه ، وهو الأمير القوى السعيد ، قد يمرض في غده ،
لم يطق متابعة سيره وعاد ثانية إلى قصره ليتدبر ويبحث عن عزاء
ويرجع كذلك أنه أصاب عزاء ، فقد خرج يتنزه للمرة الثالثة .
ولكنه في هذه المرة وقع على منظر جديد ؛ فقد أبصر رجلاً يحملون
شيئاً ما ، فسأل ماذا يكون ؟ ولما أخبر أنه رجل ميت قال متمججاً :
ميت ؟ وما الميت ؟ وأخبر أن الإنسان إذا أصبح مثل ذلك الرجل
صار ميتاً . فدنا الأمير من الجثة وكشف عنها غطاءها ونظر
فيها وسأل ماذا يحدث بعد ذلك ؟ فأخبر أنها سوف تدفن في الأرض
واستفهم عن سبب ذلك فأجيب : لأن الميت سوف لا يعود إلى الحياة
وسوف يتفنن وينتج الدود . وسأل الأمير أذلك حظ الناس
جميعاً ؟ وهل يحدث له مثل هذا ؟ وهل أدفن وأنفن وأنجن الدود ؟

عليها نوحى إلى نفسه الإيمان ، ومن ذلك مدينة كيف وما تروهم به من كنائس وأديرة قديمة . ولا يزال يستفهم القسيسين والعلمانيين من الطاعنين في السن من الناس . ولا يزال يقيم الشماز ويعظمها . . . ثم لا يعود من ذلك جميعاً بشيء إلا الجحود بما تقول الكنيسة .

تلك حال ترلستوى وما صنع في تلك السنوات التي أعقبت زواجه حتى أتم كتابه « أنا كارينينا » . ثم تلقى الضربة التي جعلته يتخبط في الظلام ، والتي جعلته يلقى بعيداً بحبل كان في متناوله مخافة أن يشق نفسه ، ويجعل دون بندقيته قفلاً غليظاً كيلا يصورها إلى قلبه . وما تلك الضربة إلا أنه بعد طول عنائه يرى الحياة لا شيء ، ولكم يزعمه اللاشيء ويوبق روحه ويرزعزع فؤاده ! ولكن إذا كان لا يحب أن يقتل نفسه فما معنى أن يستسلم لليأس ؟ وكيف يحيا إذن ويطيع حياته إذا كان لا يرضى الموت ولا يرضى الحياة ؟

إذن فليجاهد على وعورة الطريق وبعد الشقة وظلمة المفازة ، ليجد معنى للحياة ترتاح له نفسه ، ويسعد به البشر . ولئن وقف به ما سلف من جهاده وقفة التائه الذي يخيفه الفضاء والظلام ، فلخير له أن يمضى له ليل يجد بعد الضلال هدى وبعد المذاب راحة . ولأن يتحمل وغناء السفر مهما عظمت أهون عليه من هذه الوقفة التي تسكاد تلقية في قرار سحيق ...

لقد قضى من عمره قرابة ثلاثين عاماً يعمل للفن ، فليقض ما بقي من عمره عاملاً على تقرير معنى الحياة ، وليس ما يمنع أن يكون الفن أداته فيما هو قادم إذا لم الحال ...

وسوف يعمل تولستوى دائماً ناصباً ، حتى ليعد جهاده في سبيل غايته من أروع فصول الكفاح في خطى البشرية ، فليس أبلغ في معاني البطولة من تحمل مثل ما سوف يلقاه من عذاب ، ولا من الصبر على مثل ما سوف يعترض له من صماب . وسوف يفدر تولستوى في تاريخ الفكر الحديث ، والأدب الحديث ، والفن الحديث ، بجهاده المائل منقطع القرن في إخلاصه وحميته وثباته . أجل ، وسوف يرتفع إلى منزلة وسط بين الأنبياء والناس .

محمد الحبيب

الذي كان يستعينه جوجول والذي استنمائه دستوفسكي وسولوفايف ؛ وفعل ذلك جميعاً ولكن الشك ما زال يأخذ بخناقهم ويكاد يزهق روحه ...

ويقرأ العقيدة الأرثوذكسية ، وكلما آمن فيها سخر منها وبعد عن التصديق بها . فما هذا التثليث ؟ وما هذا التحول إلى دم المسيح ولحمه ؟ وما تلك المعجزات التي تنسب إلى القديسين ؟ وما تلك الأدعية والصلوات والطقوس ؟ أذلك مما يقبله العقل ؟ كلا ثم كلا ثم يحاول أن يطرد الجحود من نفسه فرمما كان الجحود هو ما يحول بينه وبين الإيمان . ويقول لنفسه دائماً إنه مستعد لأن يؤمن . قال في كتابه « اعتراف » بصف ذلك : « لقد أنجبت صوب الإيمان لأنني لم أجد شيئاً خارجه إلا الخراب . وعلى ذلك فما دمت لا أستطيع أن أطرح عقيدتي جانباً فقد صدقت وخشمت . وقد أحسست في قلبي من الفنون والاشوع ما جعلني أقبل ذلك . ثم إنى عدت فخشمت وازدردت الدم واللحم من غير سخرية في نفسي رغبة مني في أن أصدق ؛ ولكنني أذكر ما مر بي من صدمة وأرى ما ينتظرني فيما هو قادم ، فلا أملك أن أظل مصداقاً .

وإذا يرى نفسه في بحر لجلي من الحيرة يسأل نفسه : ماذا يريد أن يعرف على التحديد ليلتمس السبيل إلى معرفته ؟ فيكتب على رقعة : لماذا أنا حي ؟ ما سبب حياتي وحياة غيري من الناس ؟ وما هدف حياتي وحياة غيري ؟ ماذا تمنى ثنائية الخير والشر التي أحسها في نفسي ؟ ولماذا هي قائمة فيها ؟ وعلى أي وجه ينبغي أن أحيي ؟ وما الموت ؟ وأهم من ذلك كله وأكثره تعقيداً كيف أنجى نفسي ؟ ذلك أني أحس أني هالك ، فإني أعيش ثم أموت ؛ وإنني أحب الحياة وأخاف من الموت ، فكيف أنجى نفسي ؟ » وإذا لم يبق له إلا الدين والإيمان ، فأى إيمان ؟ إنه إذا قارن في نفسه بين تلك الأوقات التي آمن فيها بالله وبين تلك التي أنكر فيها الله ، وجد الأول نبرة فيها شفاء للنفس ، ووجد الثانية مغالمة فيها العناء ، ولكن الإيمان بالله شيء ، والإيمان بما تقول الكنيسة الأرثوذكسية شيء آخر ...

ولا يزال بطيل الفزاة في العقيدة الأرثوذكسية ، ولا يزال يقرأ الأديان جميعاً في كتبها ، ولا يزال يزور الأماكن المقدسة